الله والرياضيات

شارل مالك

شمول الرياضيات وتفوقها

من اروع المظاهر التي تتجلى عنها الحركة العلمية الحديثة شيوع الاسلوب الرياضي للبحث في العلوم جميعاً . فالتقدم العلمي الحديث ليس بالفعل سوى أثر لغزو الرياضيات جميع نواحي التفكير . ولا يقتصر هذا الغزو الرياضي على العلوم الطبيعية كالفلك والطبيعيات والكيمياء التي اظهرت منذ بدايتها انقياداً فريداً للاسلوب الرياضي والصيغة الرياضية بل تعداها الى سائر العلوم والابحاث . فعلوم الاحياء والعلوم الاجتماعية اصبح مثلها الأعلى ان تمكّن الاسلوب الرياضي من بحثها فان هي فشلت في ذلك شعرت أنها بالقدر الذي فشلت به لا يجوز لها ان تحسب نفسها علماً بالمعنى الصحيح . فالاسلوب الرياضي اصبح لذلك وهو عبارة اخرى للاسلوب العلمي

وسرُّ هذا كله تتضمنهُ طبيعة الاسلوب الرياضي اذ ليس من المعقول ان يطغى امرٌ ما على حقل واسع طغيان الرياضيات على العديم دون ان تكون علة هذا الطغيان مستقرة في طبيعة ذاك الامر . ومع اننا لسنا في هذا المقال بصدد بحث ماهية الرياضيات لكننا نلاحظ ان العلة الاولى لهذا النجاح الباهر الذي سادفتهُ الرياضيات في تطبيقها على الكون تستفاد من جنوح الرياضيات الى العد والقياس والمقابلة الكمية . فالصفة الكمية للموجودات تبز سواها من الصفات اطلاقاً وتجريداً . فالعدد « خمسة » مثلاً يطلق على مجموعات من الموجودات لا نهاية لعددها مهما تباينت خصائصها الاخرى وتناقضت، فاذا كان لديك مثلاً مجموعتان من الموجودات احداها خمسة شياطين والاخرى خمسة آلهة فتستطيع ان تجرد من صفات كلٍّ من هاتين المجموعتين ، على تناقضهما الصريح ، صفة فذة هي ان كلاً منهما «خمسة» . ومع ان المجموعة الاولى مستقلة غاية الاستقلال عن المجموعة الثانية ومع انها لذلك تشكل نظاماً خاصاً بها منفصلاً عن النظام الخاص بالمجموعة الثانية ، لكن هذا الاستقلال والانفصال للواحدة عن الاخرى كاملٌ في كل شيء الاّ في جانب واحد هو الجانب الرياضي ، لان كليهما خمسة . فترى من هذا ان الرياضيات عامل موحّدٌ بين الموجودات اذ يحكمها اصح النظامان المستقلان نظاماً واحداً اذا سنن طبيعية يسري مفعولها على كليهما على السواء . فاذا انفصل شيطانان عن المجموعة الاولى والهان عن المجموعة الثانية استطعت ان تقرر قراراً مطلقاً ان ما تبقّى من كل من المجموعتين هو «ثلاثة» . فلهذا نصرح بأن الجانب العددي من الموجودات هو اكثر جوانبها اطلاقاً وتجريداً وتوحيداً

ولهذا الجانب العددي صيغة خاصة هي المعادلة الرياضية . فكل بحث رياضي ينتهي ، او باستطاعتنا ان نثبت انهُ انما ينتهي ، الى تصريح أن مجموعة معينة من الموجودات تعادل من حيث الوجهة الكمية مجموعة اخرى . ولذلك فان اهم ما يشغل الرياضيات أذ تكتسح مختلف العلوم ان تستخرج المعادلات الرياضية التي تنطبق على الكون ، اي ان ترسم الكون وهو معادلٌ بعضه لبعض . وليست جميع هذه المعادلات من نفس الصنف بل هي تختلف باختلاف اوجه الموجودات التي تنطبق عليها . فن بديهيات العلم العامة ان للحوادث اوجهاً عديدة يختلف بعضها عن بعض من حيث النوع والثبات والاطلاق والاهمية التعليلية وما اليها . ولكل من هذه الاوجه جانبهُ الرياضي اي معادلته الرياضية . ولذلك فالمعادلات الرياضية التي تصف الكون تنقسم اقساماً وصفوفاً واجناساً منها ما ينطبق على الاوجه الثابتة للحوادث ومنها ما يمسُّ نوعاً من الحوادث معيناً ومنها ما يقوم بوظيفة تعليل وجود الحوادث العلمي وتاريخها ومصيرها ومنها ما يتناول اوجه الحوادث المستحيلة فيضبط هذه الاستحالة مهما كانت مستدقة ومنها ما يعرض لتصرف الموجودات المتشابهة التركيب الكثيرة العدد. وهكذا

ومع ان الرياضيات تتمثل في العلوم الاجتماعية والعضوية بما لا يقل عن تمثلها في العلوم الطبيعية لكن تمثل قوتها في الوصف والتعليل اكملُ في العلوم الطبيعية منه في العلوم الاخرى . ويرجع هذا الفرق الى سببين جوهريين اولها ان مادة العلوم الطبيعية ابسط بكثير من مادة العلوم الاجتماعية والعضوية ، فالمعادلات التي تصف تصرف الموجودات الطبيعية ، على تعقدها وصعوبة تركيبها ، اقرب منالاً واهون امتكشافاً من مثيلاتها في العلوم الحيوية . وثانياً اننا في العلوم الطبيعية نتناول مادة لا تمتُّ الى عاطفتنا بسبب مباشر بينما نحن في العلوم الحيوية كثيراً ما نعرض لامور تثور لها عاطفتنا فتأخذ علينا لذلك كل سبيل للتفكير الحر الطلق . فمن منا يطيق ان يقال له انه انما يؤمن بدينهِ دون سواه ويعطف على ابنه دون غيره من بني البشر لانه تتمثل في ايمانه وعطفه معادلة رياضية خصوصية هي : ا = د (م)

حيث نرمز بـ ا الى شدة عطفه او ايمانه وبـ د الى دالة رياضية خصوصية وبـ م الى عدد المرات التي تعرّض بها للاحتكاك بابنه او بثقافة دينه

ومهما يكن من امر فاننا امام حقيقة خالصة لا سبيل لنكرانها البتة . وهي ان الرياضيات اينما سعت في هذا الكون للوصف والتعليل نجحت في سعيها ؛ هذا اذا استثنينا تلك الناحية الهامة من الجوهر الفرد التي تتعلق باستحالة طاقته ، ولكن حتى في هذا الذي نستثنيه لا نستطيع ان نقطع في ان الرياضيات فشلت فشلاً لا قيام لها بعده اذ لا يستبعد ان يكون هذا الفشل الظاهري مترتباً على استعمال نوع خاص من الرياضيات في ناحية انما تتطلب نوعاً آخر . فمتى قام العبقري المنتظر واستنبط هذا النوع الجديد قد نرى انَّ ما حسبناه فشلاً

للطريقة الرياضية لم يكن في الواقع سوى قصور منّا نحن . ومع انا لا نستطيع الجزم حتى في احتمال تحقيق هذا الامل يمكننا ان نلمح في تنشي الرياضيات هذا التفشي المدهش في جميع جوانب الكون ظاهرة غريبة تدعونا على الاقل الى التأمل والتساؤل . ولقد تأمل وتساءل بشأنها العلماء والفلاسفة منذ ان بزغ هذا الصنف من البشر ، واخيراً تقرأ تأمُّل وتساؤل العلامة الانجليزي جيمس جينز الذي لخص له المقتطف للآن عدة فصول ونظريات . وغرضي من هذا المقال ان اعرض للقارىء نتيجة تساؤل هذا العالم وتأمُّله فيما يختص بالدين وبطبيعة الله وان اسمح لنفسي ان تنقده

***

يجد الوعي البشري نفسه في كون اشبه ما يكون بالمرجل الدائم الغليان المستديم الحركة المملوء بضروب من الموجودات لا يحصيها الحصر ولا يحيط بها التعداد ، ويلمح الحوادث فيه تتعاقب بانتظام وهدوء واستقلال ظاهري عنهُ . تجاه هذه الصورة المرعبة لاول وهلة المتغانية حقاً في الجلال والجمال والمعنى ، يتساءل الوعي البشري بخشوع ما بعده خشوع : كيف انفذ الى سرّ هذا الكون ، كيف افهم علّة كونيته ، اي تلك الخاصة التي تطبعهُ كوناً لا اكواناً ؟ كيف اعلل تصرُّفه ؟ . ومع ان السواد الاعظم من البشر يولد ويعيش ويفنى ولا يحاول ان يعرف من الحياة والكون سوى ما يتصل ببطونه وشهواته الاّ ان التاريخ يكشف عن وجود قوم يقرأون في الحياة رسالة تفنى لدن جالها وسموها البطون والشهوات . رسالة الحياة هذه ان تستكشف جمال الكون وحقيقته وحسنه ، وان تشيد بأدوات تفكيرك ورموز لغتك نظرة تعليلية عامة تتسق فيها جميع حوادث الكون وجوانبه

النظرات الكونية المتعاقبة

ولقد تعاقبت في التاريخ بضع نظرات كونية نذكر منها على سبيل المثال ثلاثاً . فهناك اولاً النظرة التي تطبع تصرف الكون بالصفات البشرية فترى الغضب والحب والحكمة وما الى هذه الصفات التي تعرفها في الانسان متغلغلة في جميع حركات الكون . فالعصفور المذبوح انما يرقص من الألم ولله هذا لا يختلف عن الم الانسان في شيء جوهري ، والعاصفة الهوجاء انما تنشف عن غضبة الطبيعة ، والرومان انما سقطوا في القرن الخامس للميلاد لأنّ الكون انزل بهم عقاباً استحقوه لظلمهم وفسادهم وقبح سلوكهم ، والانكليز يسودون الارض ، او كانوا يسودونها الى عهد قريب ، لان الكون اذ قابلهم بسواهم من الاجناس البشرية اتفاهم يستأهلون هذه السيادة لعدلهم وسموّ ثقافتهم ومتانة تنظيمهم فحسبها اياهم . والماء يجري والارض تدور والطفل ينمو والريشة تطير والحبيب يقبل حبيبتهُ والحرُّ ينادي بسقوط الاستبداد والاستعمار ، كلُّ هذه مظاهرُ وان تباينت لكنها في الحقيقة تستمد لبابها من مصدر واحد

ذي ارادة كونية واحدة نستطيع ان نعرفها بما هو معروف من خصائص ارادة الانسان . هذه هي النظرة البشرية للكون فهي تطبع الكون وتعرفهُ بالصفات البشرية المألوفة

وهناك نظرة كونية ثانية سادت وتوطدت في القرن التاسع عشر اعني النظرة الميكانيكية للكون . هذه النظرة ترمي الى وصف كل شيء بالسنن التي تضبط حركة الاجسام الصلبة اي بالسنن الميكانيكية . فالتفكير في الانسان ليس سوى مثل للحركة الميكانيكية التي تحدث بين دقائق دماغه ان لم يكن مجرَّد هذه الحركة بعينها، والحب والعاطفة ليسا ما الآخران سوى أثر لهذه السنن الميكانيكية في جسم الانسان . وبالجملة ان كل تصرف في هذا الكون ، في الفلك وفي المادة وفي الحياة ، تتحكم فيه ونعنيهُ السنن الميكانيكية المعروفة لدى علماء الطبيعيات

وقد بزغت في القرن العشرين نظرة كونية ثالثة هي النظرة الرياضية التي يأخذ بها السر جيمس جينز والتي يبني عليها فكرته في الله وطبيعته وخلاصتها ان الرياضيات اظهرت من النجاح الشامل في ضبطها تصرُّف الكون ما يسوّغ لنا الاعتقاد بأنها اقرب الى كنهه من سواها من الوسائل الذهنية . فقد زال الاثير المادي بمعناه العتيق وحلَّ محلهُ نظام محوري رياضيٌّ تسند اليه جميع الحوادث وتتغير مزاياه بتغير المشاهد الذي يسند الحوادث اليه . والالكترون الذي تتركب منهُ المادة لم يعد تلك الكرة الصلبة الشبيهة ببلية الاولاد قضاءً وتصرفاً بل صار دالة رياضية يعبر عنها الرياضيون بعبارة « دالة پسي » . وهذا النور ليس بتلك التموجات الاثيرية التي تصوَّرها علماء القرن التاسع عشر بل هو ذلك التركيب في صلب الكون الذي تعنيه معادلات مكسول الشهيرة بما ادخل عليها حديثاً من تعديل واضافة . والطاقة او القوة إنْ هي بالفعل سوى تلك الكمية الثابتة التكاملية التي يعرفها جيداً جميع تلاميذ علم التكامل أُدخلت على معادلة تكاملية معينة . وهكذا نستطيع ان نثبت ان جميع الفكرات الطبيعية ليست سوى معادلات رياضية او اوجه خصوصية لمعادلات رياضية . ولكن ما قولنا في العلوم الاجتماعية والحيوية ؟ هل بامكاننا التصريح بشأنها ما صرّحنا بشأن العلوم الطبيعية ؟ لا احسب اننا نستطيع ذلك تماماً الآن ، لكن بامكاننا ان نقرر الشأن الخطير الذي اصبح للرياضيات مؤخراً فيها والذي تُجمع جميع البوادر للآن على انهُ سيزداد خطراً وبروزاً

لا اخال في العالم الآن عالماً اجتماعياً يؤبه لكلامه لا يبني ابحاثه واستنتاجاته على الطريقة العلمية الرياضية . ان عصر سبنسر وكونت وغوستاف لبون ودركهيم قد زال الى غير رجعة وطريقتهم في استقصاء الحقيقة الاجتماعية لم يعد يلجأ اليها واحدٌ من العلماء المستحدثين ، ذلك لان طريقة هؤلاء كانت الطريقة التجريدية الخيالية التي يتوقف خطأُها وصحتها على شطر كبير من الصدفة اي على مقدار ما صادف فكرهم وكان مخطئاً او مصيباً ، لا على معيار موضوعي للحقيقة الواقعية . ولذلك فنظرياتهم ليست بالنظريات المبرهنة بل هي آراء لا تزال تحتاج ،

على جمال رونقها وحسن وقعها ، الى البرهان العلمي بانها هي الحقيقة الواقعية . والعلم الآن لا يقدر ان يطبق الصدفة تتسرب الى صواب تصريحاته وخطإها . ولذلك فانك تراه يعكف على انتهاج الخبرة والمشاهدة والاستنتاج وهذه كلها لا نعرف قالباً انسب لصوغها من القالب الرياضي . من هنا نشأ علم الاحصاء الحديث بما يتفرع عنهُ من الفروع الرياضية العالية كعلم الاحتمال وما اليه . وفي هذا العلم يوجد مقدار رياضي يدعى « الخطاء الاحتمالي » يلحق باية مشاهدة او استنتاج او مجموعة من المشاهدات والاستنتاجات على الاطلاق سواء اكانت في الحب او الاستقلال او الكهرباء او النسيم العليل . وقد قال لي عالم معروف في الاوساط الطبيعية العلمية في العالم كله ان اية مشاهدة لا تقترن بخطإها الاحتمالي يمر عليها العلماء الآن دون ان يميروها اقل التفات الا ملاحظة ان مؤلفها من صف العلماء المتيقين . وهذا الخطأ الاحتمالي رياضي بفكرته وبطريقة استخراجه وتطبيقه

واذن لدينا ثلاث نظرات كونية شاملة ، النظرة البشرية والنظرة الميكانيكية والنظرة الرياضية . فهل ثمة سبيل الى المفاضلة بينها والى الاخذ بواحدة دون سواها ؟

المفاضلة بين النظرات

هذا ما نحاوله سهلاً اذا وقرنا الشروط التي يجب ان تتحقق في اية نظرة صائبة للكون . واهم هذه الشروط ثلاثة ، التوحيد والتعليل والتنبؤ . فيجب على النظرة اولاً ان توحّد بين كل ما تستطيع الى توحيده سبيلاً من مظاهر الكون فتجعل هذه المظاهر تلوح كلها وهي حالٌ خصوصية لحقيقة عامة واحدة . وثانياً ان تعلل مظاهر الكون بأن تحيكها جميعاً في نظام منطقي تظهر كل ظاهرة فيه وهي معقولة طبيعية لا تصدر عن هوًى وشذوذ ونفور . وثالثاً ان تمكن العالم من التنبؤ بوقوع حوادث معينة يتحقق وقوعها في حينه . ومغزى هذا الشرط الثالث ان النظرة به تشمل المستقبل وتوحّده بالحاضر والماضي فاذا تحقق في نظرة خاصة شعرنا بازائها انها اقرب الى سرّ الكون من سواها من النظرات التي يتحقق فيها الشرطان الأوّلان فقط لانها علاوة على ما هو معروف تضمُّ عالم يعرف بعد

بهذه المعايير الثلاثة نستطيع ان نتبع انفسنا بان النظرة الرياضية لتكون اقرب الى حقيقته من النظرتين البشرية والميكانيكية . فالنظرة البشرية مع انها تنجح نجاحاً باهراً في تحقيق الشرط الاول اذ توحّد جميع تصرفات الكون في تصويرها اياها تصدر عن ارادة وعاطفة لا تختلفان في شيء جوهري عن الارادة والعاطفة البشريتين لكنها تعجز عجزاً بيناً في تحقيقها الشرطين الاخيرين ، فهي لا تعلل الكون لانها لا تدلنا على سبب تصرفه ، فلماذا غضبت الطبيعة ولماذا تحرك الماء ولماذا تكامل خلق البريطانيين حتى نالوا جزاء حسناً من الكون ،

هذه أسئلة اذا ما حاولت هذه النظرة ان تجيب عليها فانها تفعل ذلك بشيء كثير من التكلف والتصنع وتظهر تعليلاتها نافرة متعملة غير معقولة . ويزداد عجز هذه النظرة فضيحة اذ تحاول التنبوء عن الحوادث ، فهي بكامل الصراحة لا تملك من هذه القدرة شيئاً . اما النظرة الميكانيكية فصيبتها مصيبة النظرة البشرية ولكن بقدر اخف وطأة منها . فهي تنجح في التوحيد الا فيما يختص بالاشعاع والجاذبية والصفات الاجتماعية والحيوية لكنها تعجز كذلك في بعض التعليل وبعض التنبؤ . فتصرف الجوهر الفرد لا يقع بكامله ضمن نطاق تعليلها ولا تستطيع ان تتنبأ بشأنه كثيراً . كذلك هي فشلت في تعليل بعض التجارب كتجربة ميكلصن ومورلي وغيرها

والآن اذا قسنا النظرة الرياضية بهاتين النظرتين العاجزتين الفيناها ا كمل ؛ ولذلك اقرب الى طبيعة الكون منهما . فهي توحد الكون في صيغة المعادلة الرياضية وقد نجحت في تعليل كل ما تناولته للآن تقريباً تعليلاً منطقياً معقولاً وجميع تنبوءاتها صائبة . من اجل كل هذا يقول جينز ان مهندس الكون يتقن جيداً هذه اللغة التي يتكلم بها العلم الحالي ؛ اعني لغة الرياضيات ، وهو عند ما خلق الكون هندسه على الطراز الرياضي، فالله اذاً رياضيٌ خالص

انا نرى الكون مشبعاً بالرموز والالغاز وعند ما نحاول حل هذه الرموز وفك هذه الالغاز نجدها تنفك وتنحل بالوسيلة الرياضية اكثر منها بأية وسيلة اخرى . ولذلك هذه الوسيلة الناجحة تنفذ الى لباب الكون اكثر من سواها . افنكون مغالين اذا استنتجنا ان منظم هذا الكون وقع اختياره في تنظيمه الكون على المعادلة الرياضية من بين جميع ما عداها من الوسائل؟ واين الخطأ في اليقين بأنه في هذا الاختيار اثبت ان طبيعته انما تنسجم الانسجام التام مع الرياضيات الخالصة وانه لذلك الرياضيُّ الخالص للكون اجمع ؟

عيوب رأي جينز

هذا ما يعده جينز رسالة العلم الحديث عن طبيعة الله . وبودنا الآن ان نكشف عن بعض القصور الذي يشوب هذه النظرية . اذا بحثنا قليلاً طبيعة الرياضيات تكشفت لدينا عدة عيوب لنظرية جينز . فن المعروف جيداً لدى علماء الطبيعة والرياضيات معاً ان الرياضيات ليست نظرية للحقيقة الواقعية بل نظاماً ذهنياً بحتاً ، وحتى لو كانت غير متصلة بالحقيقة الطبيعية لما نقصها شيء من الروعة والجمال والحق . واتصالها هذا بالطبيعة وسننها جاءها بالصدفة دون ان نرغب فيه أو عنه . خذ مثلاً نظرية اينشتين في نسبية الحوادث . هذه النظرية لا تنطبق على الكون الا لان سرعة النور ثابتة ولكن حتى ولو كانت هذه السرعة غير ثابتة فان النسبية لا تفقد شيئاً من مزاياها الرياضية بل تستمر بناء رياضياً خالصاً لا يعتريه اقل نقص . وغاية ما يكون قد حل بها عندئذٍ ان لا يمكننا التصريح بانها تنطبق على الكون وهذا ليس بالكارثة الكبرى

للنظريات الرياضية لان قيامها كنظريات رياضية لا يتوقف بحال من الاحوال على الحقيقة الواقعية. من اجل ذلك يعرف العلماء جيداً انه توجد ثمة عدة نظريات رياضية لا نعرف سبيلاً لتطبيقها على الكون وليس من الضرورة ان نعرف لذلك سبيلاً وان ما طبق بالفعل على الكون من النظريات الرياضية ليس سوى نخبة صغيرة من مجموعة ما عرف وسيعرف من النظريات الرياضية. فالكون ينتظم بنفسه والرياضيات تنتظم بنفسها وتلامس الاثنين في بعض نقطها انما هو عرضي لا يفيد كثيراً عن طبيعة اي منهما

اذا طبقنا هذا على نظرية جينز امكننا تمييز ثلاثة انواع من الموجودات : الله والكون والرياضيات. والصورة الكونية التي يود جينز ان يرسمها لنا هي هذه : عند ما خلق الله الكون اختار بعض النظريات الرياضية نموذجاً لخلقه وترك جانباً البعض الآخر. ويودنا ان نوجه الاسئلة التالية الى (١) لماذا وقع اختيار الله على النظريات التي وقع اختياره عليها ؟ (٢) اذا كان الله رياضياً خالصاً فلماذا رغب في ابراز رياضيته الى شكل كوني خارجي ؟ لماذا لم يكتف ، كما يكتفي الانسان الرياضي بالتفكير الرياضي المجرد دون ان يلبسه حلة من الكيان المادي ؟ وبالجملة : لماذا خلق الله الكون ؟ الكي يتمتع برؤية بعض المبادئ الرياضية متمثلة فيه ؟ اذا كان الامر كذلك فان تمثل الرياضيات في الكون لا يزيدها جمالاً ورونقاً وكمالاً بل انها في حالها الصرفة المجردة ، كما يعرف ذلك كل من له المام بالرياضيات الخالصة ، اكمل واروع منها في حال انطباقها على الكون

ان اهم ما تتضمنه عبارة « الكون » أن ثمة ميزة خصوصية تحمل ما نعنيه بصدده على ان يكون كوناً واحداً . هذه هي الميزة الكونية للكون. واي كون على الاطلاق له ميزته الكونية اي ما يوجد بين جميع اجزائه ، والرياضيات بانطباقها على الكون انما تقيس هذه الوحدة وتضبطها لانها ليست سوى ذاك النظام الذهني القائم على قاعدة العلاقة والوحدة . فاية علاقة واية وحدة على الاطلاق يمكن ان تضبط بالرياضيات . وبعبارة اخرى إن الرياضيات نظام ما هو ممكن والكون نظام ما هو واقع ، والواقع يتضمنه الممكن ولذلك فهو حال خصوصية منه. من كل هذا يتضح لدينا أن لا غرابة في انطباق الرياضيات على الكون الذي نألفه بل الغرابة كل الغرابة في ان لا تنطبق عليه لان اي كون على الاطلاق له رياضيته الخصوصية . فكون أحد الاكوان ، اي كوننا هذا مثلاً ، مضبوطاً بالرياضيات شرط ضروري لكونه كوناً على الاطلاق ، لا دلالة على ان خالق الكون رياضي في جوهر طبيعته

هذه الطائفة من الانتقادات نستخرجها جميعاً من دراستنا طبيعة الرياضيات . وثمة وجهة نقص اخرى لنظرية جينز . ان الرياضيات بانطباقها على الكون لا تنطبق على طبيعته بل على تصرفه ومع ان تصرف الشيء قد يقبلط قليلاً او كثيراً عن طبيعته لكنه يتميز عن هذه الطبيعة تميزاً واضحاً . ولذلك فالماهية الداخلية لاية حادثة تظل في حرز حريز عن ان تصل

الرياضيات اليها . اي ان الرياضيات مهما نجحت في ربطها حوادث الكون وتفسيرها تصرفها وتنبؤها وقوعها لايمكن ان تنفذ الى كنه هذه الحوادث . مثلها في ذلك مثل مضارب يستطيع ربط حوادث القطن وتفسير تصرفه والتنبؤ عن تقلبات سعره وهو قابع في زاوية من زوايا البورصة لا يعرف شيئاً عن القطن وطبيعته بل قد لا يكون قد شاهد القطن في حياته . وليس بامكاني ان اري كيف تمكنه معرفته هذه من استنتاج شيء عن ماهية تلك العوامل الطبيعية التي بتساندها وتآزرها خلقت القطن . هكذا الحال في الكون، فان تصرفه متوقف على طبيعته لا طبيعته على تصرفه وقد تكون هذه الطبيعة ، بل هي بالفعل ، اوسع واكبر جداً من تصرفه الظاهري . ولذلك فان اي استنتاج لله من مجرد هذا التصرف انما يستند الى الجزء الظاهري الصغير من مجموعة صفات الكائنات

والعيب الثالث الذي نلمحهُ في نظرية جينز هو انها لا توضح مركز الله من القيم والمعاني البشرية . فاين الحب الخالص واين الفن والاستمتاع ؟ اين التقدم والحق والابداع في السلوك؟ اين المثل العليا والكرامة الانسانية والغضبة للحق والصواب ؟ اين الخير والشر في الحياة؟ اين كل ما يُجمّل هذه الحياة ويسبغ عليها بهاء وجلالاً يجعلان امراً يسيراً كل تعب وكل شقاء في سبيل استكمالها واثباتها والتسامي بها ؟ هل يحدثنا الكون اذ يسمح لهذه القيم والمعاني ان تسمو فينا وتبدو اتمّ ما تصيره الحياة ؟ ام ان هذه القيم والمعاني مركزة في الله صادرة عنه؟ يقيننا نحن ان جينز بتشديده على الناحية الذهنية الرياضية انما يشدد على جانب هام من الكون لكنه ليس بجميع جوانبه . فلكي تنسجم نظريته مع كل حقائق الحياة وخبرتها يجب ان تشدد كذلك على مرارة العيش وحلوه ، على الاختبار المباشر الواقعي للحوادث ، على النفس تسمو مُثُلها وتكامل بجهودها وتستعذب المضض والشقاء في سبيل الحق والخير والحرية والجمال ؟

ورابعة ملاحظاتنا على نظرية جينز في الله انها تغمط كثيراً مما يحرّج عليه التقليد الديني . فنحن لا يسعنا الاعتقاد بان كل ما في هذا التقليد خطأ بخطل ، وكل فلسفة بشأن الله لا تشمل ما يجمع عليه هذا التقليد نرانا في حل عن ان نشكك في صحتها او على الاقل في كمالها . الانبياء والصوفيون وقادة الروح البشرية في الاديان جميعاً يقولون برسالة في الله روحية، وانه تصرف الى طبيعته مباشرةً بالحب والعفة والطهارة . ونحسبهم على حق اكيد فيما يقولون

***

الكون اعوص من ان تحيط به نظرة ذهنية خاصة والحياة اوفر من ان يستنفدها نظام تجريدي كالرياضيات ، وكل فلسفة بشأن الله لا تستمد الهامها من الحياة الصاخبة ، من الفكر والحب والغباوة والتضحية الصامتة ، ينقصها غنى الخبرة الواقعية، وفلسفة الله يجب ان تتوّج خبرة الله لا أن تنوب عنها . ومن لم يختبر الله في قرارة نفسه لم يختبر شيئاً